ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN 2572-0023 / EISSN: 2716-9065

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلة التاريخية الجزائرية

المجلد: 04، العدد: 02 (2020)، ص77-89

السلوك الجنسي زمن الحروب الصليبية طبقة المحكومين الفرنجة نموذجًا

Sexual behavior in the time of the Crusades

The ruled class as a model

أشرف صالح محمد سيد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد (هولندا)

ashraf-salih@hotmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2020/10/13

تاريخ القبول: 2020/10/31

تاريخ النشر:2020/12/09

الكلمات المفتاحية:

- ✓ العصور الوسطى
- ✓ بلاد الشام
- ✓ الحركة الصليبية
- ✓ الانحراف الجنسي
- ✓ الفرنجة

الملخص:

السلوك الجنسي فعل يقوم به الفرد في المجتمع استجابة للغرائز والشهوات، ونظرًا لأن هذه السلوكيات قد كثرت في المجتمع الصليبي في بلاد الشام، وتعددت أشكالها بصورة منحرفة في طبقات المجتمع الصليبي المختلفة، ومن منطلق أن "**التاريخ الجنسي**" اتجاه حديث في الدراسات التاريخية، فإن الدراسة في تناولها لموضوع السلوك الجنسي داخل الكيان الصليبي تكشف لنا عن قسم من التاريخ الواقعي للصليبيين، وذلك بهدف إبراز حياة الفساد والمجون في طبقة الفرسان والجنود، أضف إلى ذلك الشواهد التاريخية الدالة على انحراف طبقة العلماء والطلاب، وطبقة العامة حيث كان الشرق اللاتيني مرتعًا خصبًا للفسق والشرور، فالعديد من الذين شاركوا في الحملات الصليبية من العلمانيين قاموا بارتكاب الفواحش منذ اللحظات الأولى لوجودهم في بلاد الشام.

Article info

Received :13/10/2020
Accepted:31/10/2020
Publication:09/12/2020

Key words:

- ✓ middle Ages
- ✓ Levant
- ✓ Crusader movement
- ✓ Sexual behavior
- ✓ al-Firanjah

Abstract:

This study deals with the issue of sexual behavior within the Crusader entity in the Levant, and reveals to us a section of the real history of the Crusaders. Its aim to highlighting the life of sexual corruption in the class of knights and soldiers, in addition to the historical evidence indicating the deviation of the class of scholars and students, and the class of the public where the Latin East was a fertile breeding ground for immorality and evils. Many of the commoners who participated in the Crusades committed immorality from the first moments of their presence in the Levant.

. مقدمة:

تدور الكتابة التاريخية عن عصر الحروب الصليبية في نطاق الرجال ومعاركهم وصراعاتهم في الأغلب الأعم، فتعددت الدراسات الخاصة بالجانبين السياسي والحربي سواء لدى المسلمين أو الصليبيين، وندر الاهتمام بالجانب الاجتماعي، وتحديدًا موضوع السلوك الجنسي في المجتمع الصليبي الذي يُعَدّ من البحوث التي تحتاج إلى معالجة موضوعية دقيقة، نظرًا لأهمية الموضوع ودقته، وقلة المصادر الخاصة به، وتناثر المعلومات عنه في المصادر والمراجع العربية والأجنبية. ومن منطلق أن دراسة الكيان الصليبي –الدخيل على المنطقة–من الداخل ومن خلال الأمراض الاجتماعية التي استشرت فيه يمثل أمرًا على جانب كبير من الأهمية من أجل معرفة العوامل الداخلية التي مهدت لضعفه ثم انهياره في النهاية. لذا اعتمدت هذه الدراسة على منهج البحث التاريخي في تتبع حياة الفساد والمجون داخل المجتمع الصليبي في بلاد الشام، وإلقاء الضوء على العلاقات الآثمة، والاغتصاب، وإدمان بيوت الدعارة في طبقة الفرسان والجنود، أضف إلى ذلك الشواهد التاريخية الدالة على انحراف طبقة العلماء والطلاب، وطبقة العامة حيث كان الشرق اللاتيني مرتعًا خصبًا للفسق والشرور.

2. طبقة الفرسان والجنود

من طبقات المجتمع الصليبي العامة التي نالها الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية، طبقة الفرسان والجنود سواء في سير أحداث الحملات الصليبية أو الجنود الذين استقروا في الشرق العربي الإسلامي، وإذا كان الانحراف الجنسي في الطبقة العليا قد غلب عليه الخيانة الزوجية وزنا المحارم واللواط، فإن صور الانحراف الجنسي في الطبقة العامة عمومًا قد تمثل فيها كل صور الانحراف الجنسي من خيانة زوجية وزنا محارم، واغتصاب، ولواط، ودعارة، وتعدد زوجات بالمخالفة لتعاليم المسيحية وغيرها من الصور.

أما بالنسبة للانحراف الجنسي في طبقة الفرسان والجنود، فقلما نجد في كتب التاريخ المعاصرة للأحداث من الفرسان أو الجنود مَنْ لم تكن له علاقة مُحرمة بالنساء، ونظرًا لانتشار هذا الأمر بين الجنود كان بعضهم يعمل كل ما في وسعه ليبعد عن نفسه الشك والريبة. يقول جوانفيل عن ذلك في أحداث الحملة الصليبية السابعة على مصر [1]: "**كان فراشي موضوعًا في فسطاطي – خيمتي – بصورة يستحيل على أحد ما أن يدخل دون أن يراني، وقد تعمدت وضعه على هذه الصورة حتى لا تتسرب الظنون الآثمة إلى أحد فيحسب أن عندي امرأة**". هذا وقد تمثلت أغلب الانحرافات الجنسية لطبقة الفرسان والجنود في عصر الحروب الصليبية في الصور الأتية:

1.2. العلاقات الآثمة

كان الفرسان الذين يقومون بخدمة بعض النساء أو البنات في الأسرة الكبيرة يُسلَون أنفسهم بهؤلاء أو بخادماتهن [2]. فنادرًا ما كان السلوك في البلاط الحاكم يتأثر بالدين، فكان من المفروض أن يوجد بين زوجة السيد الإقطاعي التي يصعب الوصول إليها وبين التابع – الفارس– الشاب نوع من الشوق بين السيدات النبيلات والشباب، ومن المؤكد أن الكنيسة لم تكن تتعاطف مع هذا الأسلوب في الحياة، ويبدو أنها لم تكن تستطيع التدخل بأكثر من الدعوة إلى العفة والتهديد بالحرمان [3]. من الشواهد التاريخية على علاقات الزنا الآثمة للفرسان والجنود في عصر الحروب الصليبية، أن السير (جيوفري) الجندي الشهير أمير (كاريانيا) وقع في حب زوجة أحد فرسانه وأحضرها من المورة وجاء إلى (أبوليا) لأجل أن تكون عشيقة له وليتمتع بها [4]. ومن الشواهد أيضًا، أنه كان هناك فارس من طائفة الفروسية المعروفة باسم (نورفولك Norfolk) يدعي (فودفري دي ميللر Millers) دخل مساكن (جون البريتاني) الذي كان فارسا، من أجل الاضطجاع مع ابنته، لكنه اعتقل من قبل بعض الأشخاص المتخفيين بالتوافق مع العاهرة نفسها، وقد رموه بعنف إلى الأرض وأوسعوه ضربًا بشدة وجرحوه، وألقي به خارج البيت نصف ميت [5].

2.2. الاغتصاب

كان الاغتصاب معروفًا في العصور الوسطى، رغم العقوبة الشديدة التي تحل بمرتكبها [6]. وإذا كان الانحراف الجنسي عن طريق علاقات الزنا الآثمة للجنود والفرسان ببعض النساء كان قليلاً في المصادر التاريخية، فإن حالات الاغتصاب التي قام بها الجنود كانت كثيرة ومتعددة، وقد ارتكبت هذه الجريمة في حق نساء المغلوب من الطرف الآخر.

عندما تفجرت الخلافات بين ملك فرنسا وريتشارد (كونت بواتو) حيث انتزع أحدهم قلاعًا من الآخر، اقترف تجاوزات كثيرة بالقتل والاغتصاب [7]. ولما قامت الحرب بين الملك (ستيفن) ملك انجلترا وبين ورثة الملك (هنري الأول) الملك السابق لإنجلترا، دخل الملك (ستيفن) مدينة (بدفورد Bedford) الإنجليزية، وجعل أتباعه يتعاملون بشكل وحشي، فقد اغتصبوا بشكل مكشوف النساء الحُبالى[8].

وعندما وصلت جموع أتباع يعقوب (أستاذ هنغاريا) إلى مدينة (بورغ) في فرنسا، وعظ يعقوب أتباعه ضد اليهود، وأرسل رجاله لتدمير المدينة، وأخذوا الذهب والفضة أينما وجدوهما، واغتصبوا كل امرأة أمكنهم أن يضعوا أيديهم عليها [9]. فقد كان اغتصاب نساء المهزوم من العادات الرذيلة في تاريخ العصور الوسطى عامة، من ذلك؛ أن التتار عندما اجتاحوا شرق أوروبا احتفظوا بالنساء اللاتي كن جميلات أحياء، ليخنقن وليقهرن من قبل عدد من مغتصبيهن، فقد جرى اغتصاب العذارى حتى مُتن من الإنهاك [10].

فلم ينس المقاتل المغولي في ظل الأهوال والمجازر التي يرتكبها والمناظر البشعة التي كان يراها، أن يُشبع غريزته، فقام بارتكاب جريمة أخرى في حق سكان البلدان المنكوبة الأوروبية والعربية الإسلامية، وهي جريمة الاغتصاب، التي أكد بها على وحشيته وقسوته. يقول ابن الأثير في تصوير ذلك:[11] "**كانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها**"، ويقول في موضع آخر:[12] "**ارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم شيئًا مما نزل بهم، فمنهم مَنْ لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك، فقاتل حتى قُتل، ومَنْ استسلم أُخذ أسيرًا**".

هذا، وتُعَدّ جرائم الاغتصاب التي ارتكبها الصليبيون في حق إخوانهم المسيحيين في مدينة القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة من أكبر الشواهد التاريخية على انحراف الجنود الجنسي في عصر الحروب الصليبية، فقد احرق الغزاة البيوت، كما دام جنون المقاتلين العاصف، واغتصاب النساء، وحفلات السُكر والعربدة ثلاثة أيام.[13] وعلى الرغم من أن المؤرخ فلهاردون لم يتحدث عن هذه الاغتصابات في كتابه، إلا أنه ذكر ما يفيد بأن الكنائس البيزنطية قد نُهبت، يقول عن ذلك: [14] "**بعد أن جُمع من الكنائس ما جُمع، قُسم شطرين متساويين، ذهب أحدهما للفرنجة، والآخر للبنادقة، وفقًا للعهد الذي أقسموا عليه، هكذا قُسَمت أسلاب القسطنطينية بين المنتصرين**".

ولا عجب في عدم تحدث المؤرخ فلهاردون المعاصر للأحداث عن هذه الاغتصابات، فقد كان هو أحد المهاجمين للقسطنطينية، بل من المخططين لذلك. فقد جاءت أنباء تتحدث عن حرق، وتعذيب واغتصاب، واندفع الصليبيون إلى الأديرة كي يعبثوا بالراهبات.[15]

ومما يؤكد على ارتكاب الجنود الصليبيين لجريمة الاغتصاب حتى في حق الراهبات البيزنطيات، أنه عندما وصلت البابا (أنوسنت الثالث) أنباء الفظائع التي ارتكبها الصليبيون ضد البيزنطيين، أرسل رسالة إلى المركيز (يونيفيس أوف مونتفرات) يؤنبهم على فعلتهم هذه، فكان مما قال: "**لقد استوليتم على القسطنطينية بدلاً من أورشليم، وفضلتم كنوز الدنيا على كنوز الآخرة، لقد أصبحتم أمام العالم كله أهلاً للبغاء والزنا والفسق، لقد اشبعتم غرائزكم الآثمة، ليس فقط بالزواج من النساء أو الأرامل، ولكن باغتصاب الزوجات والعذارى اللاتي وهبن أنفسهن للمسيح**" [16].

3.2. إدمان بيوت الدعارة

كان الفرسان الصغار المعدمين المفلسين في دوقة أكوتين في فرنسا، ليس لهم مهنة سوى إثارة المتاعب واللهو والعربدة، والبحث عن امرأة إما على أساس دائم أو مؤقت [17]، وبما أن فرنسا هي الراعي الرئيس للحركة الصليبية في كل حملاتها على الشرق، فكان من الطبيعي أن ينتقل هذا الانحراف الجنسي

معهم إلى الشرق، من إدمان للخمور، وعربدة، وإدمان لبيوت الدعارة التي انتشرت بالتزامن مع تأسيس الكيانات الصليبية في الشرق.

ومن الشواهد التاريخية الهامة على انخراط الجنود الصليبيين في الدعارة وإدمان التردد على بيوتها، أنه عندما حاصر (كونت الفلاندر) حصن حارم، – بعد نهاية أحداث الحملة الصليبية الأولى صار هذا الحصار بلا جدوى، لأخذهم أنفسهم بالتبذل وانكبابهم على ألعاب الحظ وغيرها من أمور الفساد، فقد كانوا منصرفين إليها أكثر من انصرافهم إلى العناية بأمر الحرب وقواعد عمليات الحصار المفروضة عليهم، فكانوا يقضون أوقاتهم في الذهاب والإياب إلى مدينة أنطاكية حيث يقضون أوقاتهم في غشيان الحمامات والتردد على الولائم، والانغماس في مفاسد الشراب وغيرها من الملذات الجسدية، وأهملوا القيام بمتطلبات الحصار، مستعيضين عن ذلك بملذات العبث، بل إن الذين كانوا يظهرون الجد في الحصار ما لبثوا أن تراخوا كسلاً وإهمالاً، إذ كانوا هم أيضًا يحيون حياة دنسة [18].

في الحملة الصليبية الثانية ذكر صاحب تواريخ أسرة بلانتغنت بأن جيوش إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا (لويس السابع) مُحقت، لأن الرب ازدراهم وتضاعفت دعارتهم وفجورهم حتى علَيين، ولأنهم تخلوا عن أنفسهم بشكل مكشوف لصالح الزنا والاتصالات الجنسية البغيضة إلى الرب، وإلى اللصوصية وكل أنواع الآثام [19].

وفي الحملة الصليبية الثالثة عندما علم رئيس أساقفة كانتربري بما آل إليه وضع الجيش من ضياع النظام بين رجاله وانتشار الفوضى في صفوفهم وانصرافهم إلى ارتياد الحانات لقضاء أوقاتهم فيها، ومجالسة العاهرات والانكباب على لعب الميسر، فضاقت نفسه ذرعًا بما جري وانهارت معنوياته انهيارًا أدى إلى تغلب السأم عليه من هذه الحياة [20].

وتُعَدّ الحملة الصليبية الثالثة من أكثر الحملات الصليبية التي وردت عنها أخبار تاريخية عن انغماس جنودها وفرسانها في بيوت الدعارة حتى أذقانهم. فقد كان عدد جيش ريتشارد قلب الأسد في عكا نحو (300) ألف من الرجال الأشداء، فلما أراد أن يغادرها وضرب خيمته خارجها، لم يغادر المدينة في البداية إلا عددًا هزيلاً واستكان أكثرهم إلى الكسل والبطالة، وأخلدوا إلى رفاهية الحياة لاسيما والبلد –عكا– حافل بشتى صنوف اللهو والمتعة من خمر معتقة، وكواعب أتراب ساحرات لم تر العين أجمل منهن، مما أفضى بمعظم العسكر إلى الانغماس في حياة اللهو والفجور، وأكثروا من التردد على النسوة الساقطات، وعكفوا على الشراب ينهلون منه ولا يرتوون، ومن ثَمَّ أصبحت المدينة تعج بهم وتضج من مباذلهم الدنيئة في طلب اللذة [21].

ولأن مسألة عفة الجيش كانت مسألة ملحة على قادة الفرنجة، أمر الملك ريتشارد قلب الأسد أثناء توجهه إلى قيسارية في جنوبي فلسطين سنة 1191م ألا يرافق الجيش أية امرأة، ماعدا غاسلات الملابس اللواتي عليهن مرافقة الجيش سيرًا على الأقدام، شريطة ألاّ يشكلن عبئًا عليه، أو يتحن مجالاً للرذيلة. ولكن على الرغم من أوامر الملك، فإن الفاحشة زحفت على الجيش يومًا بعد يوم، لأن بائعات الهوى عدن متخفيات إلى المعسكر. وتجدر الإشارة إلى؛ أن الفرنجة كانوا يمرون بظروف اقتصادية صعبة في هذه الأثناء واجتاحتهم المجاعة من جراء ذلك، ولعل تلك الظروف كانت من الأسباب التي دفعت تلك النسوة إلى ما قمن به من أفعال فاسدة [22].

وعندما رمَم ريتشارد قلب الأسد أسوار مدينة يافا، ظل الجيش مقيمًا زمنًا طويلاً بلا عمل منصرفًا إلى الدعة والكسل والانغماس في اللهو، وانتشرت بينهم شتى أنواع الخطايا، وأخذت تتفاقم يومًا بعد يوم، من انكباب على الشراب والفجور –يقصد بذلك اللواط–أما النساء فقد عُدن من مدينة عكا إلى الجيش وكثر الفسق، وعمت الآثام والأفعال الشريرة، ففسدت أخلاق الناس، وانصرف تفكيرهم عن الحج، وأهملوا واجباتهم الدينية التي كان من المفروض عليهم آداؤها [23].

وعندما استُدعي الفرنسيون إلى صور سنة 1192م، فقد انغمسوا في الملذات وغرقوا في الحانات وبيوت الدعارة، واستسلموا للشهوة ومسامرة الراقصات وإقامة الولائم مع بائعات الهوى [24].

وفي الحملة الصليبية الرابعة عندما كان الفرسان الصليبيون في جزيرة (ليدو) التابعة لمدينة البندقية قبل احتلالهم لمدينة القسطنطينية، حوَلوا المعسكر في ليدو إلى وكر للمقامرين وللعواهر [25]. وعندما دخل الصليبيون القسطنطينية، اغتصبت الراهبات في الأديرة، ودخل الجنود الذين لعبت الخمر برؤوسهم كنيسة آيا صوفيا وأحضروا احدى العاهرات لتجلس على العرش البطريركي وجعلوها تنشد الأغاني البذيئة وترقص الرقصات الرخيصة أمام مذبح الكنيسة، واستعملت الأواني الطاهرة من أجل احتساء الخمور، ويلاحظ أن ذلك السلوك المتوحش استمر في مدينة قسطنطين ثلاثة أيام [26]، حيث انتحب مؤرخ بيزنطي معاصر على المدينة وهو نيكيناس خونياتس (Nicetas Choniates) ورثاها قائلًا: "**أيتها المدينة، يا حامية الكنائس يا سيدة الإيمان، لقد تجرعت كأس غضب الله حتى الثمالة**" [27].

ويقول أولفر أوف بادربورن عن دعارة جنود الحملة الصليبية الخامسة (615-618هـ/ 1218-1221م) على مصر: "**ما من أحد يمكنه أن ينكر فساد جيشنا، بعد أن أعطانا الرب دمياط، وأُضيف إليها حصن (تنيس)، فقد بات الناس كُسالى، مُخنثين، تدنسوا بأعمال المهاجع والسكر والفسق والزنا والسرقة والربح الشرير**" [28]. فقد انتشرت المواخير والعاهرات ولعب النرد في المعسكر الصليبي بشكل

جعل الكاردينال (هنري دي إلبانو) المندوب البابوي في الحملة، يصدر قرارًا بطرد العاهرات ومحترفي النرد وسيء السمعة من المعسكر الصليبي أمام مدينة دمياط، وبمجرد سقوطها في يد الفرنج تفشت الموبقات بها من كل نوع وشاع العهر في المعسكر [29].

وفي الحملة الصليبية السابعة على مصر، جذب نبأ احتلال مدينة دمياط من قبل الملك لويس التاسع ملك فرنسا، وثراء الغنائم، الرجال من جميع البلاد الذين هرعوا من الشام وكل الموانئ المسيحية الأخرى في إيطاليا وفرنسا، أما النساء اللاتي كن يحلمن بالربح السهل، فقد تدافعن بأعداد كبيرة لخدمة آلاف الرجال العاطلين، أما البارونات الذين أثروا ثراءً فاحشًا، فقد كانوا يعيشون في رفاهية، ويقيمون الحفلات الصاخبة وينفقون ببذخ، ويحتفظون بالنساء سيئات السمعة، وكان الجنود يُقلدونهم، حتى إن بيوت الدعارة تم فتحها على بُعد خطوتين من خيمة الملك [30].

ولم يكتف جنود لويس السابع بانحرافهم الجنسي في بيوت الدعارة أمام مدينة دمياط، ولكن بعد فشل حملته على مصر وذهابه إلى بلاد الشام، عاد جنوده إلى سابق عهدهم، فقد انغمس بعض جنود لويس التاسع في حياة الإثم والفجور، حيث ضبط أحد الفرسان في منزل يدار للفساد خلال إقامة لويس التاسع في مدينة قيسارية، وتُرك له أن يختار بين أحد أمرين وفقًا لتقاليد تلك البلدة: إما أن تقوده المرأة الفاسقة وهو في قميص عبر المعسكر وقد رُبط بحبل بصورة مُخزية، وإما أن يُصادر جواده وسلاحه ويُطرد من المعسكر، فاختار الحل الثاني، وذهب إلى حال سبيله [31].

وتجدر الإشارة إلى؛ أن فجور المرأة الصليبية لم يكن مقصورًا على معسكرات الجند، فقد كنّ ينتبذن أماكن بعيدة عن هذه المعسكرات، ويضربن فيها قبابهنّ وخيامهنّ، ويقصدهن طلاب الهوى، وقد صوّر العماد الأصفهاني هؤلاء النسوة قائلاً: "**وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان والشواب، وفتحن أبواب الملاذ، وسبلن ما بين الأفخاذ... ونفقن سوق الفسوق، ولفقن رتوق الفتوق**" [32].

3. طبقة العلماء والطلاب الأوروبيين

إن الغريزة الجنسية غريزة أساسية في الإنسان ومن الصعب أن يتخلى عنها، فإذا كان بعض رجال الدين لم يتورعوا عن الانحراف الجنسي، فكان من الطبيعي أن ينحرف غيرهم، ومن المؤسف أن يطال الانحراف الجنسي طبقة أخرى مهمة من طبقات المجتمع في عصر الحروب الصليبية، وهي طبقة العلماء وطلاب العلم خاصةً في أوروبا. من الشواهد التاريخية على انحراف طبقة العلماء في عصر الحروب الصليبية، أن المؤلف الحقيقي لقصة الحربة المقدسة، التي صارت مثار جدل بين الصليبيين في مدينة

أنطاكية، إنما هو رجل اسمه (أرنولف) وكان صديقًا لكونت نورماندي، وكان يحيا حياة فاسقة شهوانية، على الرغم من أنه كان رجلاً عالمًا [33].

في سنة (509هـ/ 1115م)، اعترت الدوق (وليم التاسع) شاعر التروبادور عاطفة متأججة، وهام حبًا بزوجة أحد أفصاله الإقطاعيين ويدعى (إيمري دي روشفيلد Amery de Richfield) وكانت هذه المرأة تدعى (دانجروسا Dangerosa)، رغم أنها كانت متزوجة من إيمري منذ سبع سنوات، وأثمر زواجهما عن ثلاثة أطفال، فقام وليم التاسع بخطف تلك السيدة التي لم تحتج على ذلك من غرفة نومها على جواده. وحملها إلى قصره في بواتييه، ويبدو أنها كانت مستعدة للتخلي عن الزوج والأطفال من أجل الدوق الشاعر الجريء، وجعل إقامتها في برج شيده مؤخرًا باسم (موبرجيون Maubergonne)، ولم يكترث الدوق بإخفاء دانجروسا، أو حتى توخي الحذر من جانب هذين العاشقين، ومن جهة أخرى لم يبد زوجها ثمة أي احتجاج، ربما خوفًا من غضب سيده الإقطاعي الأعلى [34].

وكان يوحنا جون تزيتزس Tzetzes (504-512هـ/ 1110 - 1118م) من أدباء القرن (الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)، وكان في صغره يعمل كاتبًا لأحد الحكام المحليين الإقليميين البيزنطيين، ثم انتزعت منه هذه الوظيفة، بسبب ما رُمي به من أمر مُشين اقترفه مع زوجة رئيسه، ومن ثَمَّ اضطر لأن يكسب عيشه من احترافه التدريس والكتابة في القسطنطينية [35].

وعلى الرغم من الرقابة الصارمة على طلاب الجامعات الأوروبية، فإن عوامل الإغراء كانت كثيرة، مثل الحانات ودور الدعارة والاختلاط بأهل السوء، الأمر الذي تسبب في انحراف عدد من الطلبة، فقد كان الطلاب الألمان – مثلاً – سريعو الغضب ويأتون المُنكر والفحشاء في حفلاتهم [36].

4. طبقة العامة

كانت طبقة العامة في المجتمع الصليبي – بل وفي أوروبا – هي الطبقة الأكبر من حيث التعداد السكاني، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد بسطت القول في ذكر أسماء المنحرفين جنسيًا من الطبقة العليا، إلا أنها لم تبخل على القارئ في بسط القول أيضًا عن انحراف الطبقة العامة، على الرغم من ندرة ذكر أسماء هؤلاء العوام.

في فرنسا – مهد الحركة الصليبية وراعيتها – وصف المؤرخ الراهب (جوفري فيجواس Geoffrey of Vigeois) الوضع في أكوتين إحدى مقاطعات فرنسا، بأن الرجال كانوا شياطين، بينما النساء كُنَ يثرن مزيدًا من الرعب، ويدفعن جيران أكوتين المتحفظين إلى القول: بأن الدوقية كلها لم تكن إلا ماخورًا ضخمًا [37]. وعندما أتي الصليبيون إلى الشرق واستوطنوا فيه، لم ينسوا أخلاقهم الأوروبية وعاداتهم، فكانت

الأجيال الجديدة سلالة حديثة من الرجال والنساء أطلق عليهم اسم (البولان Poulains) وهو اسم يمكن ترجمته أو فهمه بمعنى (الأولاد). وقد كانت حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية وخصوصياتهم كلها انعكاسًا لأوروبا، ولفرنسا على وجه التحديد، وبرزت إلى الوجود فرنسا ما وراء البحار [38].

يقول الرَحالة بورشارد عن عامة الصليبيين في الأراضي المقدسة: [39] "**يقيم في الأرض المقدسة رجال من جميع الأمم، وللحقيقة فإن رجالنا اللاتين هم الأسوأ من جميع أهل الأرض، وسبب ذلك كما أعتقد، أنه عندما يصبح أي رجل شرير مجرمًا، كأن يصبح على سبيل المثال قاتلاً وسارقًا ولصًا، أو زانيًا، فإنه يقوم بقطع البحر كإنسان تائب، فيأتي الناس إلى هناك من جميع العالم من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وانجلترا وإسبانيا وهنغاريا، ومع أنهم يفعلون ذلك ويقومون بتغيير مناخهم وليس تفكيرهم. وهم يعيشون في الأرض المقدسة بأقدام ملوثة تُدنَس المقدسات**".

يقول يعقوب الفيتري عن حيل زوجات العامة من الصليبيين على أزواجهم كي يتمكن من الانحراف الجنسي خارج إطار الزوجية: [40] "**هناك بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم بالذهاب إلى الحمَام ثلاث مرات في الأسبوع، تحت حراسة صارمة، ولكن كلما اشتدت صرامة البولانية نحو زوجاتهم زاد العمل عن طريق آلاف الحيل، ووسائل نضال لا نهاية لها، ومحاولة لإيجاد طريق لخروجهن، لقد عملن العجب، وما لا يمكن تصديقه، إنهم يفضلون الانغماس في كسلهم، وإشباع رغباتهم الدنيوية والجسدية**".

كان الشرق اللاتيني مرتعًا خصبًا للفسق والشرور، وأصبح التدهور الخُلقي بين اللاتين حديث الجميع، بعد أن فاحت رائحته وأصبحت تزكم الأنوف، فكان أمرًا عاديًا أن يضبط أحد الفرنج زوجته في وضع مريب مع رجل غريب، ويتقبل الأمر ببرود كأن لم يحدث شيء [41]. وكانت بعض نساء العامة من الصليبيين يعملن على إشباع غرائزهن الجنسية بشتى الطرق، حتى وإن كان ثمن ذلك قتل الزوج نفسه. ففي مدينة عكا الصليبية قامت إحدى نساء طبقة العامة بدسَ السُم لزوجها بعد أن وقعت في شباك رجل فرنجي قادم من الغرب الأوروبي عشقته وهامت به، وتخلصت من زوجها لكي ترتبط به [42].

ولم يكن الانحراف الجنسي للعامة من الصليبيين قد بدء مع استيطانهم للشرق العربي، بل صحبهم مع أول تحرك نحو الشرق في الحملة الصليبية الأولى. فقد علَق أحد المعاصرين للأحداث على الكوارث التي حلَت بالصليبيين في البلقان في الحملة الصليبية الأولى قائلاً: "**هناك اعتقاد بأن هذه هي إرادة الله التي شاءت الانتقام من الحجاج الذين ارتكبوا الذنوب والموبقات، وانغمسوا في المعاصي، ومضاجعة البغايا**" [43]. ويقول فوشيه الشارتري (Foucher de Chartres) عن هزيمة الصليبيين في إحدى جولات

حصارهم لمدينة نيقية: "**وضح لنا آنذاك أن ما حصل لنا كان نتيجة خطايانا، إذ أفسد الترف بعضنا، بينما أفسد الجشع والرذائل الآخرين**" [44].

عندما أراد الصليبيون الاستيلاء على معرَة النعمان في الحملة الصليبية الأولى، ظهرت بعض الرؤى والأحلام [45] عن طريق بعض القديسين الذين تراءوْا لبعض الصليبيين، واعترفوا بوجود الدعارة بينهم حيث قال: "**ففي صفوفكم القتل والنهب والسرقة، فضلاً عن انعدام العدالة، كما أن هناك زنا، وإن كان يسعد الرب أن تتزوجوا، فإن الرب سيعطيكم معرة النعمان بسبب رحمته لأعمالكم**" [46].

وعلى الرغم من عدم صحة هذه الرؤى والأحلام في مجملها، لأنها كانت من وسائل الحركة الصليبية في رفع حماسة العامة عند تعرض الصليبيين للخطر، إلا أنها توضح مدى انغماس عامة الصليبيين في الانحرافات الجنسية مع وطأة أول قدم لهم في بلاد الشرق العربي، وصارت من عاداتهم الرذيلة التي مارسوها في نطاق واسع بعد ذلك.

في خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة على مصر، وعلى الرغم من أن قائد الحملة ملك فرنسا (لويس التاسع) كان يوصف بالقديس لويس، فإن العامة من الصليبيين أمام مدينة دمياط، راحوا يراقصون النسوة الخليعات، حتى أقاموا أماكن اجتماعاتهم الخبيثة على رمية حجر من فسطاط (خيمة) الملك لويس التاسع [47].

ومن صور الانحراف الجنسي التي مارسها العامة من الصليبيين الاغتصاب، فعندما اخترق الصليبيون بلاد المجر في الحملة الصليبية الأولى الشعبية، سلك الصليبيون سلوك النهَابين، فأثناء مرورهم في أرض المجريين والبلغار، كانوا يقتلون ويغتصبون ويتعسفون [48]. ذلك لأن عددًا من الفرنج تأثروا بجمال النساء اليونانيات، وفتنة المشرقيات، واستحوذوا على مسلمات في المدن المنكوبة، أما مشاهد العنف الجنسي والاغتصاب وقتل نساء الأهالي الشرقيين فهي لا تغيب عن مرويات مدوني الأخبار [49].

ومن صور الانحراف الجنسي لعامة الصليبيين الأنكحة الفاسدة التي تخالف تعاليم الكنيسة، بل جميع الأديان السماوية. من ذلك؛ أن يعقوب (أستاذ هنغاريا) ادعى لنفسه الحق في منح الغفران من كل أنواع الذنوب، وإذا رغب رجل أو امرأة من أتباعه في الزواج، فإنه كان يقوم بالمراسم، وإذا رغبا في الانفصال، فإنه كان يطلقهم بالسهولة نفسها، ويقال: إنه قد زوَج أحد عشر رجلاً لامرأة واحدة [50].

ولم يقتصر الانحراف الجنسي في طبقة العامة في عصر الحروب الصليبية على البالغين من الأوروبيين، بل شاركهم في ذلك بعض الأطفال. فقد كان ستيفن (Stephen) الفرنسي طفلاً لم يشب عن الطوق، ولكن حياته كانت تتسم بالخسَة والدناءة والرذيلة [51]. وعندما يأس الأطفال الألمان من فكرة جفاف

البحر – في حملة الطفل الألماني نيقولا (Nicola) – شعروا بالإحباط والهلاك وقلّة الطعام والشراب، وتم سلب ونهب العديد منهم عن طريق (اللمبارديين Lembards) وتم بيع العديد منهم، وأثناء عودتهم كان الناس يشيرون باستهزاء إلى الفتيات العذارى اللاتي ذهبن بعُذريتهن، ورجعن يحملن أطفال العار على صدورهن [52].

وكان يتم استغلال الأطفال في أفعال اللواط بين العامة من الصليبيين، فقد نصَت المادة الثامنة من مجمع نابلس سنة (1120م/ 514هـ)، على حرق الذين يضبطان متلبسان بجريمة اللواط، وكذلك حرق مَنْ يمارس الرذيلة مع أحد الأطفال. وهذا يدل على تنوع حالات الشذوذ التي انتشرت في المملكة الصليبية، فربما تكون بين اثنين من الرجال بالاتفاق فيما بينهما، أو تكون بين طفل وبالغ أو بين بالغين يُجبر أحدهما على ذلك، كما أن تفشي تلك الجريمة في ذروة عصر المد الصليبي يؤكد تفشيها في عصر التردي والضعف في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، ولكن على نطاق واسع [53].

5. خاتمة:

أظهرت الدراسة الجانب الأخلاقي لدى الصليبيين ومن خلال مصادرهم التاريخية في المقام الأول، فإشارات تلك المصادر لها أهمية قصوى من خلال أنها تقرر واقعًا معاشًا مُعترفًا به من جانب الصليبيين أنفسهم، بعكس روايات المصادر التاريخية العربية التي من المتوقع وجود تحامل من جانبها على الصليبيين من خلال العداء المشتعل بين الطرفين على مدى قرنين كاملين من الزمان (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين).

كان لضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيين أثر كبير في نشر رذيلة الزنا والدعارة داخل المجتمع الصليبي، فالعديد من الذين شاركوا في الحملات الصليبية من العلمانيين قاموا بارتكاب الفواحش منذ اللحظات الأولى لوجودهم في بلاد الشام.

أبرزت الدراسة صورة وتطور أخلاقيات الغزاة، فلم يكن لديهم ما يمكن وصفه بقضية صليبية حقيقية، فأمام المال والجنس انهار الصليبيون، وكشفوا فعلاً لا قولاً إن مَنْ وصفتهم المصادر التاريخية بأنهم جند المسيح كانوا أبعد ما يكونوا عن ذلك الموقف.

الهوامش:

1- جان دي جوانفيل، **القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام**، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة: دار المعارف، 1968، ص223.

2- محمود سعيد عمران، **حضارة أوروبا في العصور الوسطي**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1998، ص286.

3- يوشع براور، **عالم الصليبيين**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة: دار المعارف، 1981، ص178- 179.

4- مجهول، **تاريخ المورة**، ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دمشق: دار الفكر، 1995، ج10، ص507 – 508.

5- متَي باريس (ت. 1273م)، **التاريخ الكبير**، ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق: دار الفكر، 2001، ج40، ص1021.

6- محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص286.

7- روجر أوف ويندوفر (ت. 1237م)، **ورود التاريخ**، ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق: دار الفكر، 2000، ج39، ص329.

8- بلانتغنت، **تواريخ أسرة بلانتغنت**، ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق: دار الفكر، 1998، ج30، ص67.

9- سهيل زكار، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دمشق: دار الفكر، 1995، ج4، ص124.

10- مَتى باريس، المصدر السابق، ج40، ص590.

11- ابن الأثير: علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير (ت. 630هـ)، **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار صادر، 1979، ج12، ص383.

12- المصدر نفسه، ص367.

13- ميخائيل زابوروف، **الصليبيون في الشرق**، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو: دار التقدم، 1986، ص273.

14- فلهاردون: جودفري فلهاردون (ت. 1212م)، **فتح القسطنطينية**، ترجمة: حسن حبشي، جدة: المجلس العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، 1403هـ، ص129- 130.

15- ستيفن هوارث، **فرسان الهيكل**، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013، ص223.

16- إسمت غنيم، **الحملة الصليبية الرابعة**، القاهرة: دار المعارف، 1982، ص122- 113.

17- زينب عبد المجيد عبد القوي، **الإنجليز والحروب الصليبية**، القاهرة: دار عين للدراسات، 2009، ص118.

18- وليم الصوري، **الحروب الصليبية**، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ج4، ص224.

19- بلانتغنت، المرجع السابق، ص82.

20- مجهول، **الحرب الصليبية الثالثة**، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، ج1، ص163.

21- المرجع نفسه، ج2، ص58.

22- طه الطراونه، "**المرأة الصليبية: دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام**"، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد (8)، العدد (1)، الأردن، 1993، ص83.

23- مجهول، المرجع السابق، ج2، ص101.

24- طه الطراونه، المرجع السابق، ص82.

25- ميخائيل زابوروف، المرجع السابق، ص246.

26- محمد مؤنس عوض، **الحروب الصليبية: العلاقات بين الشرق والغرب**، الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1999، ص267.

27- Nicetas Choniates. O City of Byzantium: Annals of Niketas Choniates.- Trans. Harry J. Magoulias, Detroit: Wayne State UP. 1984, P.314.

28- أولفر أوف بادربورن، **الاستيلاء على دمياط**، ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق: دار الفكر، 1998، ج33، ص83.

29- محمد فوزي رحيل، **نهاية الصليبيين**، الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2009، ص220.

30- ريمون ستانبلوي، **مفاتيح أورشليم القدس**، ترجمة: عايدة الباجوري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004، ص275.

31- جوزيف نسيم يوسف، **العدوان الصليبي على بلاد الشام**، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1984، ص134.

32- حسين عاصي، **العماد الأصفهاني: حياته وعصره (519 - 597هـ/ 1125 - 1201م)**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1991، ص 137 - 138.

33- وليم الصوري، المصدر سابق، ج2، ص55.

34- زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص26.

35- دونالد نيكول، **معجم التراجم البيزنطية**، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003، ص211- 212.

36- محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص279.

37- زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص23.

38- يوشع براور، المرجع السابق، ص141.

39- بورشارد من دير جبل صهيون، **وصف الأرض المقدسة**، ترجمة: سعيد البيشاوي، عمان: دار الشروق، 1995، ص171- 172.

40- يعقوب الفيتري، **تاريخ بيت المقدس**، ترجمة: سعيد البيشاوي، عمان: دار الشروق، 1998، ص106.

41- جوزيف نسيم يوسف، **العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1988، ص92.

42- محمد عبد الله المقدم، **الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية**، القاهرة: دار العالم العربي، 2009، ص238.

43- جوناثان ريلي سميث، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية**، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص101.

44- فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمة: زياد العسلي، عمان: دار الشروق، 1990، ص49.

45- عن الرؤى والأحلام المقدسة عصر الحروب الصليبية، راجع: إمام الشافعي محمد حمودي (2011)، "**الرؤى والأحلام المقدسة عصر الحروب الصليبية**"، مجلة كلية اللغة العربية في أسيوط (جامعة الأزهر)، ع30، ج1، ص556 - 747.

46- ريموند اجيل، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، ترجمة: حسين محمد عطية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990، ص168.

47- جان دي جوانفيل، المرجع السابق، ص99.

48- ميخائيل زابوروف، المرجع السابق، ص56.

49- ميشيل بالار، **الحملات الصليبية والشرق اللاتيني**، ترجمة: بشير السباعي، الجيزة: دار عين للدراسات، 2003، ص66.

50- سهيل زكار، المرجع السابق، ص122.

51- عبد الغني محمود عبد العاطي، "**صليبية الأطفال 1212م**" ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط/ تحرير: رأفت عبد الحميد وقاسم عبده قاسم.- القاهرة 1983، المجلد (2)، ص184. وعن صليبية الأطفال بالتفصيل، راجع:

Peter Raedts (1982). "**La Croisade des enfants a'-t-elle eu en lieu**?" terj. Jacques Bacalu, L'Histoire, 47 (Paris) 1982, Pp.30 – 37.

52- See: Munro, Dana C. **The Children's Crusade is an article from The American Historical Review**, Volume (19). (1914, Pp.522 – 523).

53- محمد رحيل، المرجع السابق، ص214.